حوار مع البروفسور تيد هوندريتش

خاص بـ الآداب

■ للفلسطينيين حقٌّ أخلاقيٌّ في ممارسة إرهابهم ■

تيد هوندريتش أستاذ متقاعد في جامعة يونيفرستي كولدج في لندن. له عدة كتب، أشهرُها ثلاثة: بعد الإرهاب؛ عن الوسائل السياسية والغايات الاجتماعية؛ عن الوعي. أثار كتابُه الأول زوبعةً، ولاسيّما في ألمانيا مؤخّرًا، حيث اعتلى طلابٌ المنبرَ أثناء إلقائه محاضرتَه ورَفَعوا يافطة تقول: Keine diskussion mit Antizionisten (أيْ لا نقاش مع معادٍ للصهيونية). كما اتّهمه باحث في قضايا الهولوكوست بـ «معاداة السامية.» آخرُ ما كتبه قبل صدور هذه المقابلة الخاصة بـ الآداب هو مقال في جريدة الإندبندنت البريطانية، يتّهم فيه طوني بلير بـ «الكذب» و«خداع الذات» و«الانبطاح أمام إمبراطورية حمقاء في جهلها [المقصود أميركا طبعًا].» في ما يلي الحوارُ الذي أجريْناه معه، وهو حوارٌ لا يَخْلو من الخلاف الحادّ أحيانًا بسبب دفاع هوندريتش عن حقّ «إسرائيل» في الوجود ضمن حدود عام ١٩٦٧.

أجرى الحوار:

كيرستن شايد وسماح إدريس

د. هوندريتش، شكرًا لك من بيروت لاستعدادك لإجراء هذا الحوار. سؤالنا الأول: هل كانت كتابتُك ودراستُك للفلسفة لصيقةً دومًا بالأحداث الراهنة، ولاسيّما بالعلاقة بين القوى العظمى والبلدان التي كانت مستعمَرةً في السابق؟ أم أنّ كتابك، بعد الإرهاب، يمثّل انعطافةً جديدةً في عملكَ باتجاه الفلسفة التطبيقية؟

تَركَّزَ عملي الفلسفي على موضوعيْن: ماهية الوعي وعلاقته بالدماغ، ومسألة الجبر والاختيار. الموضوع الأول لا علاقةَ له البتةَ بالمسائل الأخلاقية والسياسية. وأما الثاني فليست له علاقةٌ وثيقةٌ بها هو الآخر، ولا علاقةَ له أبدًا بالأحداث الراهنة. ولكنّني حين نلتُ أول منصبٍ لي كمُحاضر في الفلسفة، طَلَب منِّي أحدُهم أن أكتب كتابًا عن مبرِّرات العقاب الذي تُنزله الدولةُ بمنتهكي القانون. وهذا دَفَعَ بشخصٍ آخر إلى أن يَطْلب منِّي كتابةَ ورقةٍ عمّا سُمِّي آنذاك بالعنف السياسي. وهذا بدوره قادني إلى تأليف كتاب في هذا الموضوع الأخير، وفي موضوع التفاوتات، وهو موضوع بدا على علاقة بالعنف المذكور. حين وَقَعَتْ أحداث ١١ أيلول (سبتمبر) صُعِقتُ بها، مثلما صُعِق الجميع وأردتُ أن أقول شيئًا، فكان الكتاب.

هل نظريّتُك «الوعيُ كوجود» ذاتُ علاقة بأعمال الإرهاب التي تقوم بها المقاومةُ في بلدان مازالت خاضعةً لأشكال متنوِّعة من القمع الكولونيالي؟

نظريتي بشكل أساسي تقول إنّ وعيَكَ هو في الحقيقة حالةٌ خارج رأسك. وهذه ليست فكرةً مدهشة، ولكنّنا نُدفَع إليها بسبب الفشل الذريع للخيارات. وهذه النظرية لا علاقة لها بالقمع أو الإرهاب ـ إلاّ من حيث إنّها تُعطي قدرًا أعظم للحجم الحقيقي لحياة البشر ولِما ينبغي أن يصل إليه المرءُ.

■

نيّات الفاعلين لا تَشْغلني بقدْر ما تَشْغلني الأعمالُ الصحيحة أو الخاطئة في ذاتها

■

ما علاقةُ عملك الفلسفي بنظرية سارتر الوجودية، التي لَقيتْ ترحيبًا كبيرًا في عدد من الأوساط الثقافية العربية لكونها شكّلتْ بديلاً من الشيوعية السوفياتية والفردانية الرأسمالية معًا؟

سيكون حسنًا أن أَرْتبط بسارتر، بسبب سياساته [الجيّدة]. ولكنّ الحقيقة هي أنْ لا علاقةَ بين وجوديته [ونظريتي] «الوعي كوجود» فما أطرحه هو نوع من الفلسفة التحليلية الإنكليزية والأميركية، وليس [شأنًا] أدبيًا. الشبهُ الطفيفُ الوحيد بين الاثنين هو أنّ طرحي يُعطي للفرد دورًا مشاركًا في وجود العالم

لننتقلْ إلى الأمور السياسية الساخنة. نصّت الأممُ المتحدة على أنّ حقّ الشعوب في تقرير مصيرها يتيح لها ممارسةَ الكفاح المسلّح، هذا من جهة. ولكنْ من جهة ثانية تَشْجب الأممُ المتحدة، وبشكل ثابت، أعمالَ الكفاح المسلّح، وتصف الإرهابَ بأنّه «عنفٌ يُرتكب ضدّ الأفراد لأهداف سياسية.» فما هو موقفك من تعريف الأمم المتحدة؟

حين تَنْجح الطبقاتُ المسيطرةُ في تحقيق أهدافها ـ إلى هذا الحدّ أو ذاك ـ في مجتمعها أو في مجتمعات أخرى بفضل الوسائل اللاعنفية، ومن غير أن تثير العنفَ ضدّها، فذلك أمرٌ في صالحها. هذا هو الوضع الاعتيادي، أو هكذا كان؛ ولهذا تدين الطبقاتُ المسيطرةُ العنفَ. والحال أنّ الأمم المتحدة تمثِّل هذه الحقيقة، ولكنْ ليس بشكلٍ ساذج. ومع ذلك فثمة شيءٌ من الواقعية الأخلاقية في ميثاق الأمم المتحدة، على النقيض من مصلحةٍ ذاتية [أنانية] تتنكّر بزيّ الأخلاق. ولكنّ هذا، كما قد تتوقّعان، يؤدّي إلى تناقض ذاتي.

أليس الكلامُ على لاأخلاقية الإرهاب طريقةً أخرى لوصف المقهور، الذي يمارس ذلك «الإرهابَ،» بأنّه لا يستحقّ الحرياتِ الأساسية؟

هل تقصدان أنّ الشجبَ الانتقائي للإرهاب ـ الذي غالبًا ما يَشْمل تسميةَ إرهاب الدول بالـ «ديموقراطية» ـ يعود إلى نيةٍ واعيةٍ بمواصلة حرمان الناس من الحريات الأساسية أو ممّا أسمِّيه «الخَيْرات البشرية العظمى»؟ حسنًا، قد تكونان على حقّ في أن تقولا شيئًا مختلفًا قليلاً. فثمة أيضًا ما هو أقلُّ من النية الواعية الكاملة. ففي الشجب الانتقائي [للإرهاب] أشكالٌ من خداع الذات. والحقّ أنّ نيّاتِ الفاعلين لا تَشْغلني بقدْر ما تَشْغلني الأعمالُ الصحيحةُ أو الخاطئةُ في ذاتها. إنّ الشجب الانتقائي أمرٌ خاطئ حين يكون الإرهابُ عملاً محقًا، وقد يكون الإرهابُ مُحِقًا بالفعل!

قبل بضعة شهور تزنّرت امرأةٌ فلسطينيةٌ بحزامٍ ناسف وفجّرتْ نفسَها أمام معبر إيريتز. كانت هذه المرأةُ أمًا لطفلين. في رأيك، هل ارتكبتْ بعملِها هذا خطأً أخلاقيًا رهيبًا، إنْ لم يكن في حقّ المحتلّين الإسرائيليين ففي حقّ طفليْها على الأقل؟ أم أنّ علينا إعادةَ تعريف «الأخلاقية» (بالمفهوم الشائع) لتأخذ في الاعتبار مشاعرَ المقهورين الوطنية والقومية، وإحساسَهم بحقّهم في تقرير مصيرهم؟

ما أقترحه في كتابي بهذا الشأن هو أنّ للفلسطينيين حقًا أخلاقيًا في ممارسة إرهابهم. فمن الجائز والمحقّ أن ينخرط بعضُ الفلسطينيين على الأقلّ [في ممارسة ذلك الإرهاب] ـ وهو ما يُسْنده مبدأٌ أخلاقي صميم، هو «مبدأ الإنسانية» لأناسٍ يُحْرمون الخيراتِ الإنسانيةَ العظمى.

ربّما هناك فلسطينيون في أوضاع ذاتية لا تَسْمح لهم بأن يشاركوا بأنفسهم في الإرهاب ـ الذي قد يكون بالطبع أيضًا دفاعًا عن النفس أو إرهابًا مضادًا، وهلمجرًا. ولكنّني شخصيًا ليست لديّ الوقاحةُ الجاهلةُ لكي أوحي بذلك في ما يتعلّق بالأمّ الفلسطينية التي ذكرتماها في السؤال.

د. هوندريتش، هناك كمٌّ هائلٌ من الفلسفة الغربية يتحدّث عن حقوق الفرد ومسؤولياته. ولكنْ هل تتغيّر المعاييرُ الأخلاقية أو تتحوّل حين تكون الهويةُ الجمعيةُ على المحكّ؟

إسمحا لي أن أعترضَ قليلاً على حديثكما عن «الهوية الجمعية،» ربّما بسبب سوء تفاهمٍ ما. لكنّ ما أراه ظلمًا رهيبًا في حالة فلسطين هو أنّ هناك عددًا كبيرًا جدًا من الفلسطينيين يعامَلون كما يعامِل العنصريون مَنْ يسمُّونهم عرقًا أدنى: ولذلك تُنْتهك طبائعُهم البشريةُ، وتُغتَصَب ديارُهم، وتُزدرى رغباتُهم وحاجاتُهم التي هي رغباتٌ وحاجاتٌ يَشْترك بها جميعُ بني البشر. وهذا كلُّه بالتأكيد يشير إلى معايير مزدوجة تافهة وأثيمة؛ إنّ ما يجري في فلسطين ليس مجردَ «تغيير» للحقوق الأخلاقية لشعبٍ بأكمله، وإنّما هو تدميرٌ وحطٌّ لها بعد هذا، يَحْسن أن أضيف أنّ ذلك هو ما يراه أيضًا بعضُ الإسرائيليين أو كثيرٌ منهم، وهو ما تَجْهر به أقليةٌ [إسرائيلية] شجاعة.

التاريخ يقودني إلى الاعتقاد بأنّ الإرهاب التحريري هو الأمل الأوحد للفلسطينيين

بالمناسبة، هل بإمكان الفلسفة الأخلاقية أن تكون عالميةً شاملةً عابرةً للحضارات؟

يبدو لي أنّنا، كبشر، نتقاسم طبيعةً إنسانيةً مشتركة. فكلُّ كائنٍ حيٍّ تقريبًا يريد أن يواصل حياتَه إلى أمدٍ زمني معقول. وكلّنا نريد صحةً جسديةً ما، تبدأ بغياب الألم. ونريد أيضًا الحريةَ والقوةَ بأشكال عديدة ونريد الاحترامَ واحترامَ الذات، متّصلِيْن كما هو عليه الحال. نريد الخيرَ العظيمَ الناجمَ عن العلاقات، الشخصيةِ والاجتماعيةِ معًا. ونريد الخيرَ الناجم عن الثقافة، بما فيها المعرفةُ والدين. ألا تطغى كلُّ هذه الحقائق المشتركة عنّا على الخلافات ما بيننا؟!

يبدو لنا أنّ فلسفتك الأخلاقية عن المقاومة تأثّرتْ بتجربة المؤتمر الوطني الأفريقي. أليس كذلك؟

ليست محاولةُ إيجاد الحقّ أمرًا هيّنًا. إنّها تدفعك إلى التفكير في مبدإٍ أخلاقي سياسي كبداية، أو إلى أن تحاول امتلاكَ رزمة من الأمور بدلاً من أمرٍ واحد. وهناك أيضًا المشاكل الحقيقية الهائلة عن التبعات المحتملة التي تنبثق أثناء تحديد ما هو حقّ. شعوري هو أنّ الوصول إلى تلك القرارات التخمينية بصددِ ما سيحدث، نتيجةً للإرهاب ربّما، أصعبُ من الرسوّ على المبدإ الأخلاقي الصحيح والسّياسات الأخلاقية الصحيحة المرتبطة به. لكنْ تنبغي الإضافةُ أنّ الأشياء الخاطئة أحيانًا تَبرز [أكثرَ من غيرها] ببساطة إنّها كالبدهيات. وهذا ينطبق على النضال ضدّ الأپارتايد. كان ذلك الصّراع مبرَّرًا بوضوح، ومُحِقًّا بوضوح. وهو ينطبق أيضًا كما أعتقد على النضال التحرري الفلسطيني. ليت التفكير الأخلاقي كان بوضوحِ ونظامِ الرياضيات، لكنّه ليس كذلك!

يقول الفلسطينيون إنّهم يحاولون التحرّر من الاحتلال الكولونيالي. لكنّ الإسرائيليين يزعمون بدورهم أنّهم يتحرّرون من قرون من الاضطهاد العالمي، وأنّهم يَحْمون أنفسَهم الآن من اعتداءاتٍ محتملةٍ غيرِ مبرّرة. مَنْ يقرّر إنْ كانت حركةٌ سياسيةٌ ما تَسْعى إلى التحرّر... أو إلى العدوان؟

هناك فارق كبيرٌ بين أن تدافع عن نفسك ضدّ انتهاكٍ تتعرّض له الآن، وأن يَرْتكب شخصٌ آخر أعمالاً ما بسبب اعتداءات تعرّضتْ لها [جماعتُه] في الماضي. وهناك أيضًا فارقٌ كبير بين أن تدافع عن نفسك، وبين أن يَخْتلق شخصٌ آخرُ أمورًا ما. أما في ما يتعلّق بمَنْ يقرّر ما هو مبرَّر وما هو غيرُ مبرَّر، فإنّ على الجواب أن يكون كالتالي: إنّ مَنْ يقرّر ذلك هو كلُّ واحدٍ منّا، بحسب قدراتنا القصوى فليست هناك سلطةٌ مركزيةٌ تقدِّم قراراتٍ كهذه. وأمّا بصدد ما هو حقٌّ فعلاً في أيّ حالةٍ محدّدة، فجوابي هو التالي: إنّه مسار الفعل الذي يَخْدم ـ وفقًا لاعتماده على أفضل المعلومات والحكمة الممكنة ـ الوصولَ إلى «مبدإ الإنسانية» إنّه المسار العقلاني في سعيه إلى إخراج الناس من حياة البؤس.

في رأيك، علامَ بَرْهَنَ تاريخُ المقاومة الفلسطينية بخصوص الحقّ الأخلاقي لأيّ حركة مقاومة في ممارسة «الإرهاب»؟

يبيِّن التاريخُ، كما أرى، تصلُّبًا رهيبًا من طرف إسرائيل النيو ـ صهيونية. ثمة ضربٌ من الأنانية الحديدية في هذه الحالة. وهذا لا ينحصر في متشدِّدي الليكود وحده بل يمتدّ إلى إسرائيليين آخرين، بمن في ذلك عدةُ رؤساء وزراء. لم يكن هناك أيُّ عدلٍ أو سخاءٍ في العروض التي زُعم أنّها قُدِّمتْ إلى الفلسطينيين أثناء حكم كلينتون. إنّ ما قُدِم لهم كان إفطارًا لكلب، لا وطنًا لشعب! وهذا التاريخ يقودني إلى الاعتقاد بأنّ الإرهابَ التحريري هو الأملُ الأوحدُ للفلسطينيين. وهذا أمرٌ أساسيٌّ في تفكيري.

■
إنّ ما قُدّم للفلسطينيين أثناء حكم كلينتون كان إفطاراً لكلب، لا وطنًا لشعب!
■

حتى لو اتفقنا على أنّ المقاومة المسلّحة حقٌّ أخلاقيّ لا يَقْبل التصرّف، أفليستْ هناك حالاتٌ تكون فيها التبعاتُ المتوقّعةُ لهذه المقاومة من التدمير الساحق للمجتمع الذي تنطلق منه (كمثل استخدام الإسرائيليين لطائرات الأباتشي ردًا على الأحزمة الفلسطينية الناسفة) بحيث تغدو استثارةُ تلك العواقب «خطأً» أخلاقيًا أكبرَ من ذلك الحقّ؟

يبدو لي أنّ الإرهاب التحريري liberation-terrorism هو الإرهاب الذي يَمْتلك أكثرَ الحظوظِ في أن يكون عملاً مُحِقًّا. ولكنْ لا يمكن أن يكون صحيحًا أنّ كلّ ذلك الإرهاب مُحِقٌّ. إنّ قتلَ الناس وتشويهَهم لا يُمْكن أن يكونا حقًّا أخلاقيًا لأيٍّ كان، إذا كانت تبعاتُهما لا يُمكن أن تبرِّرهما. ومن البيِّن بالدرجة نفسها أنّ المرءَ قد يُضِلُّ حين يَخْدم غايةً خيّرةً بوسيلة لاعقلانية أو غير عقلانية وأفْترضُ أنّ كلّ غايةٍ شريفةٍ في التاريخ البشري قد سُلِكتْ أحيانًا بطريقةٍ خاطئةٍ وظالمة؛ كما سُلكتْ أيضًا بطريقة مُحقّة.

لنأخذْ لبنان مثلاً يا دكتور. كثيرون قالوا في لبنان إنّ مِنْ حقّ حزب اللّه تحريرَ الجنوب بالهجوم المباشر على الجنود وحدهم. وقالوا إنّ استخدام صواريخ الكاتيوشا «العشوائية» ضدّ «المدنيين» في المستوطنات المحاذية للبنان يقوّض من أخلاقية المقاومة اللبنانية. ولكنْ في النهاية اتّضَح أنّ الخوف الذي خَلّفَتْه الكاتيوشا، من بين عوامل أخرى، وربّما بسبب «عشوائيّتها،» هو الذي ضغَطَ على الإسرائيليين من أجل الانسحاب من معظم الأراضي اللبنانية. كان هذا ما سمّيناه هنا «توازُنَ الرعب»: كلّما استُهدِفَ المدنيون اللبنانيون، استُهْدِف «المدنيون» الإسرائيليون كذلك. كيف ترى سيرورةَ هذا التوازن حين يؤدّي بشكلٍ حتميّ إلى تهديد الأفراد، رغم أنّ هؤلاء زَرَعَتْهم حكومتُهم من أجل تهديد الآخرين، كما هي حالُ المهاجرين الأثيوبيين والروس الذين يَسْتوطنون اليوم الحدودَ مع لبنان؟

في الفصل الجديد الأخير من الطبعة الورقية لكتابي، **بعد الإرهاب**، أَوْليتُ هذا النوعَ من الأسئلة بعضَ الاهتمام. هناك أمرٌ نحتاج إليه، وهو التمييزُ الدقيقُ بين مئات الضحايا. فبدايةً، ثمة أبرياء واضحون، ولكنْ ثمة أيضًا نصفُ أبرياء، بالخيار أو بالإذعان، يستفيدون أو يَنْتفعون من الأفعال الظالمة التي تقوم بها حكومتُهم وشعبُهم. الأمر الآخر الذي ينبغي أن نفكّر به هو العقيدةُ الشخصيةُ المسمّاة «الأثر المزدوج»: وهي القول بأنّني لم أكن أقصد أن أصل إلى ما كنتُ أعرف أنّه سيكون نتيجةَ أفعالي. فالحال أنّ طبيعة النزعة الأخلاقية في ذاتها ـ وهي طبيعة تتوزّع على قضايا الأفعال الخيِّرة، والمسؤوليةِ الأخلاقيةِ عنها، والفاعلين الخيِّرين عمومًا ـ تَدْحض هذه العقيدةَ السخيفة.

قلتَ في كتابك إنّ الإرهاب يمكن تبريرُه أخلاقيًا حين يكون هناك أملٌ معقولٌ في كسبٍ كبيرٍ مقابلَ المعاناة النازلة بالمضطَهدين. ما هي درجةُ حظوظ هذا الأمل على خارطة التوقّعات والمطامح؟ فلو تطلّعنا إلى العوامل المصطفّة ضدّ الفلسطينيين (كقوة الجيش الإسرائيلي، والتحالفِ الإسرائيلي ـ الأميركي، وضعفِ دول العالم في مواجهة هذا التحالف، ومستوى الاستثمار الهائل للشركات العالمية في الكيان الصهيوني وفي دعم الصهيونية تحديدًا)، فهل ثمة أملٌ معقولٌ في تحقيق الحلم الفلسطيني في التحرير وتقرير المصير؟ وإذا كان الردُّ بالإيجاب، فكيف يُمْكن إبرازُ هذا الأمل لبقية العالم؟ وإذا كان الجواب سلبًا، فما هي المسؤوليةُ الأخلاقيةُ للقادة الفلسطينيين؟

اليهود الذين حُوصروا في غيتو وارسو حاربوا ضدّ النازيين إلى النهاية. بل قال بعضُ الناس إنّ اليهود حاربوا إلى النهاية من دون أيِّ أمل غير أنّ هؤلاء الناس كانوا على خطإ. فالحال أنّ المرء يستطيع أن يحارب لا من أجله هو ولا من أجل الحاضر، بل من أجل مَنْ سيأتون بعده وهذا شيء مقدَّس يقوم الفلسطينيون به ليست هذه بالإجابة الكاملة عن سؤالكما، لكنّها البدايةُ. وأعتقد جازمًا أنّ لدى الفلسطينيين أملاً معقولاً في إنهاء اغتصاب وطنهم. لديهم ذلك الأمل تحديدًا لأنّ الوصف الأخير الذي قدّمتُه ـ أي اغتصاب وطنهم ـ وصفٌ حقيقيّ. فهناك ظروفٌ تَدْفع بالناس إلى مواصلة القتال، وإلى أن يربحوا شيئًا في النهاية. إنّ هذا هو ما ينبغي أن يُبرَزَ أمام أنظار العالم. وينبغي أيضًا أن نضيف أنّ النضالات التحريرية، حين تُؤْخذُ بجدية، تمتلك تشكيلةً واسعةً من الأهداف الممكنة، الأعظمِ والأقلِّ عَظَمَةً، بحيث تكون الأهدافُ الأقلُّ عَظَمَةً جديرةً ـ هي نفسُها ـ بمشقّة النضال!

كل دولة هامة لديها إرهابٌ في ماضيها الوطني: وهذا يَنْطبق على إسرائيل وبريطانيا

في العادة يصوَّر الإرهابُ في وسائل الإعلام الغربية نتيجةً لكراهيةٍ مَرَضيةٍ لاعقلانية. وفي وسائل الإعلام العربية غالبًا ما يُوصف باللاعقلانية والعبثية وتقويض الأهداف الأصلية المتوخّاة. ومع ذلك فقد عمدتَ أنتَ إلى البرهنة على وجودِ أساسٍ عقلانيّ للإرهاب. لماذا، وكيف؟

الزعم بلاعقلانية الإرهاب هو حماقةٌ أو كذبٌ أو خداعٌ للذات .. أو هو نظرةٌ تقليديةٌ، أمرٌ تلقائيٌّ لا دَخْلَ للتفكير فيه تقريبًا. أحيانًا، لكنْ ليس دائمًا، يستحقّ خداعُ الذات الإدانةَ، لأنّه أكثرُ خزيًا من الكذب. بالتأكيد هناك إرهابٌ خاطئ إلى درجة كارثية، ولكنّ إساءةَ استخدام [مصطلح] «الإرهاب،» بشكل عام، تتفادى الحقائقَ العاريةَ، وتتفادى النفاقَ الواضحَ، الناجمَ ربما عن وجود إرهابٍ تمارسه **الدولُ**. فكلُّ دولةٍ هامةٍ لديها إرهابٌ في ماضيها الوطني. وهذا ينطبق بالطبع على إسرائيل. وينطبق أيضًا على بريطانيا، التي اشتركتْ هي نفسُها في ما أَسْمتْه terror-bombing (قصفًا بهدف بثّ الرعب) لألمانيا. أمّا بشأن البرهنة على أساس بعض الإرهاب فهذا شأنٌ كبير. يَبْدأ بمبدإ عامّ، ثم يمضي إلى تأمُّل الأسئلة الواقعية التي تزداد صعوبةً، وينخرط في نقاشِ أمورٍ مثلِ قتل الأبرياء براءةً خالصة.

ولكنْ هل قتلُ الأبرياء يَجْعل فعلَ المقاومة خاطئًا بالضرورة، أو خاطئًا بكليّته؟

أحد الأجوبة هو أنّه لو كان الأمرُ كذلك فإنّ كلّ مقاومةٍ هامةٍ، بل وكلَّ حرب هامةٍ، خاطئةٌ بالضرورة أو بكليّتها. فإذا قبل المرءُ هذه النتيجةَ العامة، أيْ إذا كان سَلاميًا مُطْلقًا، فإنّ أمامه عملاً كثيرًا لدعم موقفه. فعليه، بدايةً، أن يُظْهر لماذا يكون قتلُ أحد الأبرياء أمرًا خاطئًا، في حين يوافق الجميعُ على أنّ ذلك شرطٌ أساسيٌّ **لإنقاذ** عدة أبرياء أو كثيرٍ من الأبرياء!

نادرًا ما نَسْمع شخصيةً عامةً في الولايات المتحدة أو المملكة المتحدة تتحدّث عن الحق الأخلاقي للفلسطينيين في أرضهم. فكيف توصّلتَ أنتَ، كفيلسوف مقيم في المملكة المتحدة، إلى أنّ الفلسطينيين ينبغي ألا يُحْرموا الرجوعَ إلى أرض أجدادهم والسيادةَ عليها؟

يبدو لي أنّ كثيرًا جدًا، بل غالبيةً كبرى، في المملكة المتحدة يؤْمنون فعلاً بالحقّ الأخلاقي للشعب الفلسطيني في أرضهم ـ بغضّ النظر عن استخدام تلك الغالبية لمثل هذه اللغة؛ ولعلّ «تشيري بلير» واحدةٌ من هذه الغالبية. وأما الولايات المتحدة فمختلفة؛ ذلك أنّ المجتمع هناك هو من الغباء ـ وأعني أنّه مجتمع أُضعفتْ قراراتُه الذاتيةُ كثيرًا بسبب تجهيلٍ متعمَّدٍ ـ بحيث إنّه محكوم بأن يكون مختلفًا. هل تسألانني أيضًا كيف تأتّى لي أن أدافع عن الإرهاب الفلسطيني؟ هذا يستدعي جوابًا أطولَ من أن نجد له مجالاً هنا. فلأكتفِ بالقول إنّ الفلسفة الأخلاقية قد تعطي المرءَ ثقةً معيّنةً وإدراكًا معيّنًا في المسائل الأخلاقية. كما أنّ اتخاذ قراراتٍ أخلاقية معيّنة هو في ذاته انخراطٌ، بطريقةٍ ما، في الكفاح. بل قد يكون المرءُ مجبرًا على التعبير عن أمرٍ بأقصى ما تَسْمح به الحقيقة.

بروفسور هوندريتش، لقد اعترفتَ بحقّ «إسرائيل» في الوجود. ولكنْ ألا تعتقد أنّها تمارس إرهابًا يوميًا هائلاً ضدّ عدة ملايين من الفلسطينيين الذين لا يستطيعون ـ بسبب وجود الدولة الصهيونية ـ العودةَ إلى بيوتهم، ولا أن يكونوا مواطنين من الدرجة الأولى، بل ولا يستطيعون توريثَ ممتلكاتهم الموروثة أبًا عن جدّ؟ وفضلاً عن ذلك، فإنّ هناك أكثرَ من مليون فلسطيني مازالوا يعيشون داخل الأرض التي اغتصبتْها «إسرائيل» منهم عامَ ١٩٤٨، وهم ضحيةٌ لنظامٍ مركّبٍ وواسعٍ من التمييز العنصري. أليس «حقُّ إسرائيل في الوجود» مستندًا إلى ظلمٍ أخلاقيّ رهيبٍ يواصل الفلسطينيون ـ أفرادًا ومجتمعًا ـ تحمُّلَه ما يقارب العقودَ الستة؟

إنّني لا أحتاج إلى أن أُقْنَعَ بما سمعتماه منّي عن انتهاك فلسطين والفلسطينيين. إنّ احترام الآخرين واحترامَ الذات جزءٌ من الحكاية. ولكنْ إذا سألتماني ما إذا لم يكن لإسرائيل الحقُّ في الوجود داخل حدودها عام ١٩٦٧، فإنّني أقول: بلى، لديها هذا الحقّ! هنا أيضًا نحن أمام موضوع كبير، في القلبِ منه قضيةُ الهولوكوست [المحارق النازية]، وواقعةُ أنّه كان يُمْكن إنشاءُ إسرائيل داخل ألمانيا، حيث كان عليها بالطبع أن تُنشأ. ولكنّ الكارثة أنّ ذلك لم يُعتبر أمرًا ممكنًا. إنّ إنشاءَ وحمايةَ دولةٍ يهوديةٍ ما ضِمْنَ حدود ١٩٦٧ يَبْدوان لي ظلمًا للفلسطينيين، ولكنّهما أمرٌ تبرِّره معاناةُ الهولوكوست! إنّ ذلك حقيقة مروِّعة، وهي بالطبع مروِّعة للفلسطينيين [تحديدًا]

إنشاءُ وحمايةُ دولة يهودية ضمن حدود ٦٧ ظلمٌ للفلسطينيين، تبرِّره معاناةُ الهولوكوست!

طبعًا نحن لا نوافقكَ الرأيَ، بل نرى أنّه أمرٌ فظيعٌ أن نبرِّرَ (أخلاقيًا فوق ذلك!) تدميرَ شعبٍ لرفع المعاناة عن «شعب» آخر، خاصةً حين لا يكون الشعبُ الأول هو مَن ارتكَبَ الفظائعَ في حقّ الثاني. ولكنّ هذا أمرٌ يحتاج إلى حديث طويل. سؤالنا الآن ينطلق ممّا ذكره بني موريس في آخر كتاب له عن تاريخ طرد الفلسطينيين. فقد بَيَّن أنّ الحركة الصهيونية عام ١٩٤٨ تبنّت ممارسةً منهجيةً للمجازر، ولأشكالٍ أخرى من الإرهاب، بهدف استثارةِ «ترحيل طوعي» للفلسطينيين. أهناك أيُّ مبرِّر أخلاقي لتلك الممارسة الإسرائيلية، ولخططٍ شبيهةٍ تناقَش اليومَ علنًا في الصحافة الإسرائيلية؟

بصراحة، لا داعي لهذا السؤال، لأنّ عليكما أن تعرفا جوابي سلفًا. إنّ النيو ـ صهيونية، وكلَّ ما خَدَمَ ويَخْدم غاياتها وحدَها فقط، خطأٌ لا تهمُّني دوافعُ الإسرائيليين بقدْرِ ما يهمّني الظلمُ المذهلُ لما يفعلونه على أرض الواقع. لكنّ الحُكْم على هذه المسألة الأخيرة يعتمد، بطريقةٍ ما، على الدوافع والاستراتيجيات. إنّ فكرة أنّ الإسرائيليين يُمْكن أو يُحْتمل أن يَرْتكبوا الفظائعَ من أجل استثارةِ فظائع ضدّهم، ومن ثم من أجل منع التوصُّل إلى حلّ سلميّ يضطلع به المجتمعُ الدوليُّ أيضًا، هذه الفكرة تبدو لي برهانًا آخر على أنّ ما يفعله الإسرائيليون خطأٌ مريعٌ.

اغتيالُ أحمد ياسين، مع زوجته وسبعة أشخاصٍ آخرين، فسَّرَه عددٌ من الفلسطينيين بأنّه اغتيالٌ لمشروع الدولة الفلسطينية أيًا كان شكلُها. فما هي في رأيك الخطوةُ المبرِّرةُ أخلاقيًا لإقناع الإسرائيليين بشرعية هذا المشروع وأنْ لا سبيل إلى وقفه؟

إنّ تفكيري لم يتعدّ الفرضيةَ التالية: إنّ الإرهاب، أو الدفاعَ عن الذات، الذي يقوم به الفلسطينيون حتى الآن حقٌّ ومبرَّرٌ. إنّه حقٌّ أخلاقيٌّ. لكنّكما لو سألتُماني ما إذا كان الفلسطينيون سيَحْظَوْن

بالاستقامة الأخلاقية إنْ هم شرَعوا في تعذيب الإسرائيليين حتى الموت، فلن تُمْكنني الإجابة. غير أنّني لا أَقدِّم نفسي بصفتي صانعًا للتمايزات الأخلاقية الدقيقة، أو كاهنًا يحاول أن يَرْسم خطوطًا دقيقة.

ليس الإسرائيليون وحدهم مَنْ يدينون بشكل دائم أعمالَ الهجوم الفلسطينية ضدّ المستوطنين، وضدّ الجنود خارج أوقات الخدمة العسكرية، وضدّ كلّ مَنْ هو داخل مناطق ٤٨، بل تُشاركهم في ذلك منظّماتٌ تعنى بحقوق الإنسان وتحظى باحترام عالمي واسع. ولكنْ أيَمْلك أحدٌ الحقَّ الأخلاقيَّ في أن يعلِّم مجتمعًا يَسْعى إلى التحرُّر (وهذا يعني بالنسبة إلى عدد كبير من الفلسطينيين تحريرَ كلّ فلسطين التاريخية) أين وكيف يُقاوم؟ ألن يكون ذلك محضَ اختطافِ القامعين للُغةِ «الأخلاق» من أجل الحيلولة دون مقاومةٍ ممكنةٍ ضدّهم؟

يحقّ للناس غيرِ المنخرطين في الصراع أن يتحدّثوا عن هذا الصراع. لقد كان الافريقان البيض في جنوبي أفريقيا يقولون إنّ الناس في انجلترا، الواقعين خارج نظام الفصل العنصري، لم يَفْهموا [المسائل]، وإنّهم ـ من ثم ـ لا يَمْلكون أيّ سلطةٍ للحديث عن هذا الموضوع. لكنّ هؤلاء الأفريقان البيض كانوا مخطئين، على ما نستطيع جميعُنا أن نتبيَّنه اليومَ. إنّ الناس خارج فلسطين وإسرائيل يستطيعون، بل يجب عليهم، أن يفكِّروا في ما يجري وأن يعبِّروا عن قناعاتهم. إنّهم بذلك لا يقومون، في رأيي، بأيِّ فعلِ «اختطاف.»

لنتحدَّثْ عن المقاطعة. هناك حاليًا حملةٌ عالميةٌ لمقاطعة البضائع الإسرائيلية والشركات التي تستثمر في «إسرائيل» بطرقٍ تقوّي من قدرة الصهيونية على ممارسة التمييز العنصري (على سبيل المثال: تمويل هجرة اليهود إلى فلسطين ومنع عودة الفلسطينيين). ولكنّ هذه الحملة نفسها تُنعت بأنّها اعتداءٌ غيرُ أخلاقي على المدنيين الأبرياء! فما هو رأيك في ذلك؟

لديّ تجربةٌ شخصيةٌ من التعرّض لاتهامات سخيفة من هذا النوع؛ فقد تمّت إدانتي في ألمانيا بمعاداة السامية، وذلك من طَرَف باحثٍ في شؤون الهولوكوست، بسبب كتابي: **بعد الإرهاب**. ليس ثمة في الحقيقة أيُّ داعٍ لقول أيّ شيء إضافي في مسألة المدنيين.

إنّ غالبية كبرى في المملكة المتحدة تؤمن بالحقّ الأخلاقي للفلسطينيين في أرضهم

أخيرًا، قلتَ في مكانٍ ما إنّ رَفْضَ منظمة أوكسفام قبولَ تبرّع بمبلغ ٥٠٠٠ جنيه استرليني من حقوقك عن ذلك الكتاب خيانةٌ أخلاقيةٌ لأهدافِ أوكسفام المعلنة نفسِها. وهذا يقودنا إلى مسألة أخرى متداولة في العالم العربي والعالم الثالث عامةً، وهي: هل الغايةُ الأخلاقيةُ لمقاومةٍ محليةٍ ما أو لمشروع إحيائيّ ما تبرِّر قبولَ الدعم من مصدرٍ مُلتبسٍ من الناحية الأخلاقية؟ أليس قبولُ الدعم مثلاً من USAID [الوكالة الأميركية للتنمية العالمية] يُعطي وزنًا أخلاقيًا لبرامجَ متحالفةٍ مع الاحتلال الكولونيالي للعراق؟ ما موقفك من هذه القضية؟

أنا إنسانٌ تَبِعاتيٌّ consequential جادّ: أيْ أنّني أؤْمن بأنّ ما يجعل فعلاً أو سياسةً ما على حقّ يتوقف ـ بحسب أفضل القرارات والمعلومات المتوافرة في زمنٍ معيّن ـ على ما إذا كانت ستكون لهما تبعاتٌ معيّنة، أيْ ما إذا كانا سيَخْدمان الغايةَ من «مبدإ المساواة.» ولكنْ كما نَعْلم كلُّنا ويُحزننا كلُّنا، يَصْعب التأكّدُ من صوابية القرارات المستندة إلى تخمين التبعات. وهذه هي الحال في قضية قبول التبرُّعات، وقبولِ ربط هذه التبرعات بمانحيها. لا جواب عامًا عندي على هذا السؤال. ولكنْ في ما يخصّ التّبعاتية سأضيف فكرةً، وهي أنّنا كلُّنا تَبِعاتيّون في الحقيقة، ولكنّ بعضَنا يرتدي أثوابًا تنكريةً بسبب الأنانية وإيثار الذات. أيْ أنّ بعضًا يقول إنّ هناك قواعدَ للواجب أو للعلاقات وغيرِ ذلك لا علاقةَ لها بالآثار المترتّبة، في حين أنّ هذه القواعد ما هي في الحقيقة إلاّ وسائلُ لتحقيق تبعاتٍ جيدةٍ أنانيةٍ لأنفسنا.

بيروت ـ لندن